[١١٤ – عن جابرٍ ﷺ: أن النبي ﷺ قال لمعاذٍ: (فلولا صليت بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؛ فإنه يصلي وراءك الكبير، والضعيف، وذو الحاجة)].

هذا الحديث الشريف حديث جابر بن عبد الله –رضي الله عنه وعن أبيه– وقد تقدمت معنا ترجمته في قصة معاذ مع النبي –ﷺ– حينما اشتكاه أهل قباء أنه يطول في صلاة العشاء اشتمل هذا الحديث على بيان السنة في القراءة في صلاة العشاء وبيان السنة في عدم التطويل على المأمومين .

يقول المصنف –رحمه الله– : **[عن جابرٍ: أن النبي ﷺ قال لمعاذٍ]** هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عوف بن عائذ بن عامر الخزرجي الأنصاري كان رضي الله عنه وأرضاه من الذين أسلموا في مقدم رسول الله –ﷺ– وكان عمره ثماني عشرة سنة أسلم رضي الله عنه وأرضاه، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله –ﷺ– وكان آية في العلم والعمل جمع كتاب الله وحفظه في عهد رسول الله –ﷺ– وكان أحد الأربعة الذين يشار إليهم بأخذ القرآن عنهم عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل، وقال بعض العلماء : سالم مولى أبي حذيفة.

كان هذا الصحابي الجليل عظيم المرتبة كريم المنزلة عند النبي –ﷺ– أحبه رسول الله –ﷺ– ، والدليل على ذلك: أنه قال له ذات يوم : ((يا معاذ، والله إني أحبك فلا تدعن كلمات تقولها دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) فهنيئاً له بهذا الفضل وهنيئاً له بهذه المنقبة كان من أعلم أصحاب رسول الله –ﷺ– بالحلال والحرام كان وعاءً من أوعية العلم حتى جاء في الخبر عن سيد البشر ﷺ ((أنه إذا حشر الناس يوم القيامة وحشر العلماء تقدمهم معاذ برمية حجر)) وهذا يدل على فضله وعلو منزلته رضي الله عنه وأرضاه، كان حافظاً عالماً فقيهاً صالحاً وجمع بين العلم والعمل فحفظ كتاب الله فظهرت آثار ذلك الحفظ على جوارحه، كان قوام الليل صوام النهار سخياً كريماً لا يسأله أحد شيئاً إلا أعطاه حتى إنه ﷺ أصابه الفقر وأصبح مديوناً بسبب كثرة إنفاقه وجوده وسخائه.

ومما يدل على ذلك: أن عمر –رضي الله عنه وأرضاه– نادى غلاماً من غلمانه ذات يوم وأعطاه أربعمئة درهم وقال له : اذهب بها إلى معاذ وانظر ماذا يصنع بها فجاء بها إلى معاذ وقال : إن أمير المؤمنين يَقرَؤك السلام، وهذا لك. فلما أعطاه الصرة ترحم على عمر ودعا له بخير ثم قال مباشرة لغلامه : يا غلام هذه خمسة لفلان وهذه سبعة لفلان وهذا كذا لفلان وهذا كذا لفلان حتى بقي الشيء القليل فصاحت عليه زوجه من بيته: أننا مساكين. أي: نحن أحق بهذا المال من غيرنا. فما أمسك منها إلا القليل.

كان الصحابة –رضوان الله عليهم– من أزهد الناس في الدنيا؛ لأنهم رأوا رسول الله –ﷺ– وما كان فيه من حب الآخرة والإقبال على الله فما برحت قدماه ذلك المكان حتى فرق المال لله وفي الله وابتغاء مرضاة الله رضي الله عنه وأرضاه، كان من أعلم الصحابة وكان رسول الله –ﷺ– يحبه وأثنى عليه وأنه من أعلم الأمة بالحلال والحرام، ولما كانت آخر سنة له عليه الصلاة والسلام قبل وفاته نادى معاذ واختاره لمهمة عظيمة ورسالة كريمة اختاره رسولاً له إلى أهل اليمن فناداه وقال له : ((يا معاذ إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله..)) ثم ذكر الحديث ثم قال : ((يا معاذ لعلك أن لا تلقاني بعد يومي هذا ولعلك أن تمر بقبري ومسجدي)) فبكى معاذ –رضي الله عنه وأرضاه– وكاد أن يتخلف لكن رسول الله –ﷺ– أصر عليه فكانت آخر لحظاته التي رأى فيها حبيبه ومحبه ﷺ.

وبقيت لمعاذ –رضي الله عنه– المكانة والمنزلة عند الخلفاء فحفظ خلفاء رسول الله –ﷺ– لحبيب رسول الله –ﷺ– منزلته وكرامته ومناقبه وفضله فلما رجع في خلافة أبي بكر وتحققت فيه معجزة النبي –ﷺ– زهد في الدنيا وطمع في لقاء الله واشتاق إلى الشهادة في سبيل الله فجاء إلى خليفة رسول الله –ﷺ– يستأذنه بالخروج إلى الجهاد فلما استأذنه لم يستطع أبوبكر –رضي الله عنه وأرضاه– أن يَبُتَّ له في الحكم فلم يأذن له ولم يمنعه وقال له : انتظر . وهذا يدل على علو منزلته ومكانته فجمع الصحابة واستشارهم وكان فيهم عمر وعلي فقال عمر : لا تأذن له لن يسد غيره مسده . أي: لن يقوم أحد مقام معاذ في الفتوى والعلم، فقال علي –رضي الله عنه– : يا خليفة رسول الله لا تحُلْ بينه وبين ما يريد. فارتاح أبوبكر لرأي علي وأذن لمعاذ أن يخرج من المدينة للجهاد في سبيل الله –عز وجل–.

فخرج إلى الشام وغبر قدميه مع الكرام في عزة الدين والإسلام رضي الله عنه وأرضاه حتى كان طاعون عمواس فلما نزل بالشام هذا الطاعون ووقع ما وقع بين الناس من الخوف والشدة قام معاذ –رضي الله عنه– فبلغ ما في جعبته ووعائه من العلم فَذَكَّر الناس أن الطاعون رحمة وذَكَّرهم بقول النبي –ﷺ– : ((إنه كان فيمن كان قبلنا عليهم رجساً وعذاباً وإن الله جعله لأمتي رحمة وشهادة)) فلما قال ذلك اطمأنت القلوب وارتاحت النفوس واستسلمت لأمر الله، ثم قال رضي الله عنه وأرضاه : اللهم اجعل لآل معاذ من هذا الخير أوفر حظ ونصيب . فطعنت زوجتاه وماتتا في يوم واحد فغسلهما وكفنهما وصلى عليهما واحتسب الأجر عند الله وشاء الله أن يفجع في أهله وولده حتى يكون ذلك أعظم في أجره فطعن ابنه عبد الرحمن وهو أكبر أبنائه وأحبهم إليه فلما طعن احتسبه عند الله –عز وجل– فلما نفض يديه من قبره طعن في يده رضي الله عنه وأرضاه فسقط على فراشه وعالج الموت حتى كانت آخر ليلة له من الدنيا فمازال يقول رضي الله عنه وهو على وجه السحر قريباً من الفجر : هل أصبحنا ؟ فيقولون : لا بعد . أي: هل طلع الفجر فيقولون : لا بعد، فلما طلع الفجر قال : هل أصبحنا ؟

قالوا : أصبحنا، قال : اللهم إني أعوذ بك من صباح إلى النار اللهم إني أعوذ بك من صباح إلى النار. أي: اللهم لا تجعل يومي هذا ينتهي بي إلى النار. كأنه أحس بدنو الأجل وقرب الموت، ثم قال : اللهم إنك تعلم أني كنت أخافك وأخشاك اللهم إنك تعلم أني كنت أخشاك وأخافك وإني اليوم أرجوك وإني اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنني لا أحب هذه الدنيا لغرس الأشجار ولا لجري الأنهار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الأسحار. ففاضت روحه رضي الله عنه وأرضاه مع الأبرار . نسأل الله العظيم بمنه وكرمه أن يجعل أعالي الفردوس مسكنه ومثواه وأن يجزيه عن أمة محمد –ﷺ– وعن نبيه خير الجزاء وأوفاه، توفي ﷺ في السنة السابعة عشر وقيل بغيرها.

هذا الصحابي الجليل كان إماماً لأهل قباء وجاء في بعض الروايات أنه كان هو وأبي بن كعب –رضي الله عن الجميع– يصلي بقباء، والذي وقع أنه كان يصلي مع النبي –ﷺ– العشاء ثم ينطلق بعد صلاته مع النبي –ﷺ– إلى أهل قباء فيأتيهم وقد تأخر عليهم فيصلي ويطول في قراءته رضي الله عنه وأرضاه في انتظاره لصلاة رسول الله –ﷺ– ثم يصلي معه وينطلق ويقرأ بقومه البقرة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كماله وتقواه وفضله وحرصه على الخير.

ومن فقهه رضي الله عنه وأرضاه: أنه كان يصلي العشاء؛ لأن العشاء هي آخر الصلوات فلو طرأ شيء من الأحكام أو طرأ شيء من السنن رأى ذلك وعلمه ثم يطبقه في صلاته بقومه ﷺ.

فانطلق ذات يوم بعدما صلى مع النبي –ﷺ– وأتى قومه فصلى بهم واستفتح بالبقرة وكان فيهم رجل صاحب زرع ونخل وكان الناس في القديم لا يأتيهم المغرب إلا وقد أعيتهم المعيشة وأصابهم الضنى والتعب من الكدح والنصب في طلب العيش والرزق فكانوا إذا جاء المغرب ينالهم من الجَهد ما الله به عليم فكانت أثقل الصلوات صلاة العشاء؛ لانتظارهم لها فكونهم ينتظروه بعد مجيئه من عند رسول الله –ﷺ– فيه مشقة ثم كونه يطول في الصلاة أيضاً فيه مشقة زائدة.

فلما استفتح بالبقرة انفرد هذا الرجل – وكان صاحب زرع – وأتم لنفسه ثم انصرف إلى ماله فلما سلم معاذ أخبروه بما كان من الرجل فقال معاذ : إنه منافق، والسبب في هذا: أن الصلاة ما كان يتخلف عنها على عهد رسول الله –ﷺ– إلا المنافقون قال عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه وأرضاه– : "ولقد رأيتنا على عهد رسول الله –ﷺ– وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق معلوم النفاق".

فاتهمه بالنفاق فلما بلغ كلام معاذ إلى الرجل لم يحتمل الرجل قوله فانطلق إلى رسول الله –ﷺ– وأخبر رسول الله –ﷺ– أن معاذاً يصلي معه ثم يأتيهم بعد أن يصلي مع رسول الله –ﷺ– ويطول عليهم فاستدعى رسول الله –ﷺ– معاذاً، وقال له –كما في الرواية الصحيحة– : **[(أفتان أنت يا معاذ، فلولا صليت بـ**

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾؛ فإنه يصلي وراءك الضعيف والسقيم وذو الحاجة)] في هذه الجملة عدة أحكام ومسائل :

أولها : فيه دليل على مشروعية شكوى الإمام إذا أضر بالناس وأنه لا يجوز للإمام أن يجعل من إمامته طريقاً للإضرار بإخوانه المسلمين بل عليه أن يترفق وأن يحسن إليهم وأن يحببهم في صلاتهم وقيامهم بفريضتهم بين يدي ربهم، فشكوى الرجل وإقرار النبي –ﷺ– له على ذلك يدل على مشروعية بيان الضرر ووجود الكلفة والمشقة.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام : ((أفتان)) من الفتنة والفتنة تطلق بمعانٍ وقد يراد بها الصرف عن طاعة الله إما مطلقاً أو خاصاً فأعظم ما تكون الفتنة إذا كانت بالكفر ولذلك يسمى الكفر فتنة كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي: صدوهم عن الدين والتوحيد والإسلام وقيل : عذبوهم، وقوله : ((والفتنة أشد من القتل)) أي: كفر الإنسان وفتنه عن دينه أشد من القتل وأعظم بلاءً منه في الدنيا والآخرة.

وتطلق الفتنة بمعنى: الصرف عن الإسلام وعن طاعة الله –ﷻ ؛ لأن الإمام إذا طول نفر الناس من الصلاة وراءه وإذا نفروا من الصلاة وراءه ربما تركوا الصلاة بالكلية وأقل ما يكون وليس بالقليل أن يتركوا الصلاة مع الجماعة فصارت إمامته فتنة لهم من هذا الوجه ((أفتان أفتان أنت يا معاذ)) استفهام إنكار وفيه شيء من التوبيخ والتقريع من رسول الله –ﷺ– وفيه دليل على صدعه عليه الصلاة والسلام بالحق مع أنه يحب معاذ وأقسم بالله وبربه أنه يحبه وإن من محبتك لأخيك أن تنصحه فمن أحبك نصح لك ومن أحبك أخذ بحجزك عن نار الله –ﷻ– وعن غضب الله وهكذا كان رسول الله –ﷺ– مع الناس، فكانت محبته للصحابة لا تمنعه من التذكير بالله والأمر بأمر الله والنهي عما يرضي الله –ﷻ– .

[(فلولا صليت)] أي: فهلا، فهي للحض، كقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ أي: فهلا. [(فلولا صليت)] أي: قرأت. [بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ، ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾] هذه الجملة فيها دليل على مشروعية قراءة أواسط المفصل في صلاة العشاء؛ لأن الشكوى وقعت في صلاة العشاء وفي هذا دليل أيضاً على أنه يسن للإمام أن يتخير الوسط الذي ليس فيه تقصير وليس فيه كذلك إطالة والموفق من وفقه الله –ﷻ–.

[فلولا صليت بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ، ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾] هذه كلها من أواسط المفصل وعليه قال العلماء : يستحب أن تكون القراءة في صلاة العشاء من أوسط المفصل ويجوز أن

يقرأ من قصار المفصل أي من بعد الضحى؛ لأن حديث البراء الذي تقدم معنا سمع النبي –ﷺ– في صلاة العشاء يقرأ في إحدى الركعتين : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وقد تقدم بيان ذلك .

وقوله : **[(فإنه يصلي وراءك الضعيف والسقيم وذو الحاجة)]** تقدم شرح هذه الجملة حينما بينا حديث أبي مسعود عقبة بن عامر –رضي الله عنه وأرضاه– في خطبته عليه الصلاة والسلام وموعظته حينما قال : ((إن منكم منفرين إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن وراءه السقيم والضعيف وذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء)) ودل هذا الحديث على أن السنة التخفيف على الناس وأنه هو الهدي؛ لأن رسول الله –ﷺ– خاطب به الأمة فقال : ((إذا أم أحدكم بالناس فليخفف)).

وكذلك أيضاً رغب فيه عليه الصلاة والسلام في قوله لمعاذ : **[(فلولا صليت بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾]** فهذا يدل على أنه يستحب التخفيف وأنه هو الهدي الأكمل والأفضل للأئمة، وفي قوله : ((أفتان)) فيه دليل على أنه ينبغي للإمام أن لا يتعاطى أسباب التنفير فإن معاذاً –رضي الله عنه– لا يشك أحد أنه قرأ بالبقرة وهذا أعظم لأجره وأرضى لربه وأثقل في ميزانه ومع ذلك اشتمل على الضرر فلم يتنبه معاذ –رضي الله عنه– له.

وعلى هذا: فإنه ينبغي للإمام أن لا يتعاطى أسباب التنفير، وقوله : ((أفتان)) كما أن الفتنة تكون في القراءة، قد تكون أيضاً في الخطب وقد تكون في المواعظ وقد تكون في المحاضرات وقد تكون في الكلمات التوجيهية كأن يأتي بكلام يشتمل على التوبيخ والتقريع بأسلوب ينفر ولا يحبب الناس في طاعة الله ولا محبة الله، ولذلك قال ﷺ : ((إن منكم منفرين)).

والميزان في ذلك: أن ينظر حال الناس فإن كان الناس يحبون هذا الخير ويقبلونه ويقبلون عليه لأسلوب الإنسان وطريقته وحكمته فهذا من توفيق الله –عز وجل – له وهو أقرب الناس وأولاهم بهدي رسول الله –ﷺ– وأما إذا كان أسلوبه بالعنف والغلظة والشدة على الناس مع أنه يمكنه أن يأتي بالحق بأسلوب يرغب وبأسلوب يحبب في الخير ولا ينفر منه فإنه حينئذ يكون منفراً من الخير وقد رغب رسول الله –ﷺ– في تحبيب عباد الله في طاعة الله حتى قال عليه الصلاة والسلام : ((إني لأرجو أن أكون يوم القيامة أكثرهم تابعاً)) فيحرص الداعي إلى الله والمذكر بالله أن يحبب عباد الله في دين الله . نسأل الله العظيم رب العرش الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين – والله تعالى أعلم –.